(EISSN :2602-5434) -(ISSN:2437 -0231)

شروط تأليف المفردات العربيّة من منظور الدّرس الصّوتيّ قديما وحديثا

Arabic vocabulary authoring requirements from the perspective of a voice lesson old & new

د. الحاج علي هوارية

وحدة البحث تلمسان

الجزائر

تاريخ الإرسال: 2019/04/25 تاريخ القَبول: 2019/11/25 تاريخ النّشر:2019/12/15

ملخّص:

الفصاحة أمر مطلوب في كلام العرب، لأنّ الذّوق العربيّ يميل إلى كلّ ما هو فصيح مُبِينٍ وينفر من كلّ ما هو دون ذلك. وقد صاغ العرب قديما وحديثا قوانين صوتيّة لصياغة المفردات العربيّة حتّى تكون فصيحة مُبِينَةً وهذا ما عُرف عندهم بحسن التّأليف؛ فرأوا أنّه كلّما تباعدت مخارج الأصوات كانت الألفاظ حسنة والعكس صحيح. وهذا ما أشرت إليه في هذا البحث؛ حيث ذكرت أسباب التّنافر الصّوتيّ في ألفاظ اللّغة العربيّة من وجهة نظر العلماء العرب القدامى والمحدثين، ثمّ تطرّقت إلى أضرب التّأليف، وعرّجت أخيرا على خفّة الحرّكات أو الصّوائت ودورها في حسن التّأليف، واستشهدت بآيات قرآنيّة وأبيات شعريّة.

الكلمات المفتاحية:الفصاحة-العربيّة-التّنافر الصّوتيّ-التّأليف.

Abstract: (Times New Roman; size-10, Interline =simple)(لا تتجاوز 05 أسطر)
Eloquence is required in the words of the Arabs, the Arab flair tends to whatever is voluble shown and alienate from everything without it. Wehitha was an ancient Arab formulated sound Arabic vocabulary drafting laws to be fluent, indicating that they have known good synthesis; they saw the broken off exits votes were good words and vice versa. This is referred to in this research as mentioned cause's disharmony in Arabic language semantics voice from the perspective of Arab scholars, old and modern, turning to hit, finally turning the vowel movements or lightness and its role in the proper authorship, citing verses, poetically.

Keywords: Eloquence-Arabic- dissonance voice -synthesis.

مقدّمة:

تحدّثنا في هذا البحث عن حسن تأليف مفردات اللّغة العربيّة ويتمّ ذلك من خلال تباعد المخارج أو بصفة أخرى أن تكون الأصوات المكوّنة للألفاظ بعيدة المخارج، فكلما كان ذلك حسنت الألفاظ وسهل نطقها والعكس صحيح، وهذا ما نادى به الباحثون قديما وحديثا. وقد تناولنا جملة من العناصر أهمّها: الخّفّة والثّقل في ألفاظ اللغّة العربيّة، وأضرب التّأليف، وخفّة الحركات أو الصّوائت وقد استشهدنا بجملة من الأبيات الشّعريّة في هذا الصّدد.

1- أسباب التّنافر الصّوتيّ في ألفاظ اللّغة العربيّة:

الثّقل والخفّة أمران معنويان في اللّغة لا يقدّرهما إلاّ الذّوق، وهو ليس من الصّفات الّتي يجمع عليها النّاس؛ ثمّ إنّ الّذين دوّنوا اللّغة لم يجمعوها إلاّ بعدما انطبعت الألسنة على لغة القرآن وجرت في نهجه، وبعد تنقّل هذه اللّغة في أدوار التّهذيب حتّى بلغت نهايتها من الكمال؛ فمن ههنا تألّف ذوق عامّ في تقدير لهجات القبائل المختلفة والتّميز بينها خفّة وثقلا.[1]

وقد لفتت هذه القضية بال الباحثين قديما وحديثا، فمن القدماء نجد ابن سنان الخفاجيّ (ت466ه) الّذي قال في هذا الضّرب: "ووقوع المهمل في هذه اللّغة في الأكثر اطّراح الأبنية الّتي يصعب النُّطق بها لضَرْبٍ من التّقارب في الحروف، فلا يكاد يجيء في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم، وثقله، وقد رُوي أنّ الخليل بن أحمد قال: سمعنا كلمة شنعاء وهي: الهُعْخُع، وأنكرنا تأليفها".[2]

فالتّنافر هو ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثّقل على اللّسان وعسر النّطق بها، ومن ذلك ما روي عن أعرابيّ سئل عن ناقته، فقال: تركتها ترعى الهُعْخُع. ومنه ما هو دون ذلك كلفظ "مُسْتَشْزِر"؛ وذلك لتوسّط الشّينوهي مهموسة رخوة بين التّاء وهي مهموسة شديدة والزّاي وهي مجهورة.

ويرى الشّيخ بهاء الدّين السّبكي (ت773ه) أنّ "التّنافر يكون إمّا لتباعد الحروف جدّا، أو لتقاربها، فإنّها كالطّفرة، والمشي في القيد، ونقله الخفاجيّ عن الخليل بن أحمد، ورأى أنّه لا تنافر في القرب وإن أفرط، ويشهد له أنّ لنا ألفاظا متقاربة حسنة، كلفظ الشّجر، والجيش، والفم، ومتباعدة قبيحة مثل: ملع إذا أسرع، ويردّ على من جعل القرب والبعد موجبين للتّنافر، أنّ نحو الفم حسن مع تقارب حروفه، وقد يوجد البعد ولا تنافر مثل: (علم)، ومثل: (البعد)، فإنّ الباء من الشّفتين والعين من الحلق، وهو حسن". ويضيف

قائلا: "ويشبه استواء تقارب الحروف وتباعدها في تحصيل التّنافر استواء المثلين اللّذين هما في غاية الوفاق والضّدّين اللّذين هما في غاية الخلاف في كون كلّ من الضّدّين والمثلين لا يجتمع مع الآخر فلا يجتمع المثلان، لشدّة تقاربهما، وكما يقال العداوة في الأقارب، ولا الضّدّان؛ وحيث دار الحال بين الحروف المتباعدة والمتقاربة، فالمتباعدة أخفّ حتّى جعل جماعة تباعد مخارج الحروف من صفات الحسن".

ومن المحدثين نذكر على سبيل المثال لا الحصر محمّد الطّيّان الذّي يقول في هذا الشّأن: "والحقّ أنّ البعد لا يدعو إلى التّنافر ، وإنّما هو القرب، والدّليل على ذلك أنّ الحروف لا تأتلف في العربيّة، بحال من الأحوال، ينسب جلّها إلى مخارج متقاربة كالحروف الحلقيّة، والحروف النّطعيّة، والأسلية، واللّثوية...وهكذا يؤلّف كلّ حيّز من الأحياز النّطقيّة مجموعات من الثّنائيات المتنافرة في العربيّة".[3]

وقد سانده الرّأي فوزي حسن الشّايب أيضا، فقال في الشّأن ذاته فهو يرى أنّ العربيّة قد حرصت على نسج كلماتها من حروف متباعدة المخارج إلى الحدّ الّذي لا يسبّب إجهادا لأعضاء النّطق، فيتمكّن المرء من نطق الكلمة بسهولة ويسر دون أن يتعثّر لسانه في نطقها أو تختلط الأصوات ببعضها. فهذا الباحث يرى بأنّ تباعد مخارج الأصوات يحدث نوعا من التّنوّع الموسيقيّ بحيث تظهر معه الأصوات على حقيقتها فلا يحدث إرباك أو تشويش في الصّيغة، وقد حرصت اللّغة العربيّة حرصا شديدا على عدم الجمع بين الأصوات المتقاربة جدّا في مخارجها في الكلمة الواحدة فهذه سنّة مطّردة وسلوك عامّ لها.[4]

2-أضرب التّأليف:

التّأليف ثلاثة أضرب؛ أحدهما: تأليف الحروف المتباعدة، وهو أحسنه، وهو أغلب في كلام العرب. والثّاني: الحروف المتقاربة لضعف الحرف نفسه، وهو يلي الأوّل في الحسن. والثّالث: الحروف المتقاربة، فإمّا رفض، وإمّا قلّ استعماله، وإنّما كان أقلّ من المتماثلين، وإن كان فيهما ما في المتقاربين وزيادة، لأنّ المتماثلين يخفّان بالإدغام.[5]

وتُعدّ حروف الحلق خاصّة ممّا قلّ تأليفهم لها من غير فصل يقع بينها، كلّ ذلك طلبا للخفّة، وتجنّبا للثّقل في النّطق. وسمّي هذا النّوع من الألفاظ بالمغلطة؛ وهي تلك الألفاظ الّتي يعسر النّطق بها لعدّة أسباب منها: كثرة الحروف الّتي رُكّبت منها تلك الألفاظ والّتي يعسر النّطق بها، وإمّا أن يكون من أجل مخرج الحرف نفسه، وإن نُطق به وحده مثل كثير من حروف الحلق. وإمّا أن يكون سبب العسر عند تركيب الحرف مع غيره من الحروف، وذلك إمّا لتقارب مخارجها وذلك سبب الإدغام في لسان العرب، وإمّا لتكرارها مثل قولهم:

قصصت أظفاري.[6]ولذلك استحسنوا الألفاظ والعبارات المؤَلَّفة من حروف متباعدة المخرج.[7]

وهذا ما ذهب إليه ابن دريد (ت321ه) أيضا،فقال: "اعلم أنّ الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللّسان منها إذا تباعدت لأنّك إذا استعملت اللّسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذّلاقة كلّفته جَرْسًا واحدا وحركات مختلفة". ويضيف قائلا في نفس المضمار: "واعلم أنّه لا يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لصعوبة ذلك عليهم، وأصعبها حروف الحلق فأمّا حرفان فقد اجتمعا في كلمة أخ بلا فاصلة واجتمعا في مثل أحد وأهل وعهد ونخع غير أنّ من شأنهم إذا أرادوا هذا أن يبدؤوا بالأقوى من الحرفين ويؤّخروا الألين".[8]

وإذا عرّجنا على اللّغويّين المحدثين وجدنا الدّكتور تمّام حسّان يرى أنّ فكرة تقارب المخرج وتباعدها هيأساس هذه الظّاهرة في اللّغة العربيّة الفصحى وهي الّتي اصطلح على تسميتها بـ "ظاهرة التّأليف"؛ فبحسبها تتجاور الحروف في الكلمة أو لا تتجاور. وهذه الظّاهرة هي الّتي استعان بها نقّاد الأدب القدماء في الكشف عمّا سمّوه: "التّنافر اللّفظيّ" وعلى أساسها بنوا نقدهم لكلمة "مستشزرات" الواردة في معلّقة امرئ القيس، ولعبارة "وليس لقرب قبر حرب قبر". وتفسير كلّ هذا أنّ الذّوق العربيّ يميل إلى "كراهية التّضادّ أو التّنافر".[9]

قال البحتريّ:[10]

يَجْشَمْنَ مِنْ بُعْدٍ أَدَاءَ تَحِيَّةٍ لِلْقَبْرِ -ثَمَّ- وَمَسْحَةٍ لِلْمِنْبَرِ

في لفظة (يجشمن) تنافر صوتي مردّه إلى توالي الأصوات الشّجريّة(الغاريّة)، فهي متحدّة المخرج. وهذا ما أشار إليه نفر من القدامى وعلى رأسهم الخليل بن أحمد؛ فهو يرى أنّ الكلام إذا قربت حروفه قربا شديدا كان ذلك بمنزلة مشي المقيّد، فهو بمنزلة رفع اللّسان وردّه إلى مكانه، وفي هذا صعوبة على اللّسان.[11]

وممّا ورد في ديوان البحتريّ قوله في مدح أبي الخطّاب الطّائيّ:[12]

فَكَأَنَّمَا البَحْرُ **اسْتَجَاشَ** يَمِينَهُ فَقَضَى بِهَا أَرَبًا مِنَ الآرَابِ

في لفظة"اسْتَجَاشَ" نوع من التّنافر الصّوتيّ بسبب اجتماع صَوْتَيْ الجيم والشّين المنتميان إلى مجموعة أصوات وسط الحنك؛ فالشّين صوت رخو مهموس، يندفع الهواء من الرّئتين في أثناء النّطق به مارّا بالحنجرة فلا يتحرّك معه الوتران الصّوتيّان، ثمّ يتّخذ مجراه في الحلق ثمّ الفم. فعند النّطق بصوت الشّين يرتفع اللّسان كلّه نحو الحنك الأعلى، وتقترب الأسنان العليا من السّفلى.[13]

أمّا الجيم فصوت شديد مجهور يتكوّن باندفاع الهواء إلى الحنجرة محرّكا معه الوترين الصّوتيّين، ثمّ يتّخذ مجراه في الحلق والفم حتّى يصل إلى المخرج: وهو عند التقاء وسط اللّسان بوسط الحنك الأعلى التقاء محكما بحيث ينحبس هناك مجرى الهواء. فعند انفصال العضوين انفصالا بطيئا يُسمع صوت الجيم الانفجاريّ.[14]

قال البحتريّ:[15]

سَقَى "حَلَبًا" حَلَبٌ مُسْبِلٌ مِنَ الغَيْثِ يَهْمِي بِهَا أَوْ يَثِجْ

وقوله كذلك:[16]

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَاهِدٌ يُرْتَضَى ورائك فِي الجَحْدِ مُودٍ مُضِجْ

وكذلك قوله:[17]

جُدُودٍ مَكَارِمُهُمْ كَمَا بُدِئَتْ، وَهُمْ أَعْلَى وَأَكْبَرُ مِنْ ضُبَيْعَةَأَضْجَمِ

في لفظتي "مُضِج" و"أضجم" ثقل ملموس في النّطق؛ ومردّ ذلك إلى تجاور الضّاد المطبقة مع الجيم الغاريّة (الشّجريّة)، وهذا ما أشار إليه الدّكتور تمّام حسّان قائلا: "... إلى ما سبق ذكره مراعاة القيمة الصّوتيّة كالتّفخيم والتّرقيق، وبهذا يمكن الادّعاء مثلا تجاور أحد الأصوات المطبقة (ص-ض-ط-ظ) مع أحد الأصوات الغاريّة(ش-ج-ي) وهي أشدّ الأصوات استثقالا".[18]

قال البحتريّ:[19]

لاَ أَنْسَيْنَ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا وَظِلاَلِ عَيْشٍ، كَانَ عِنْدَكَ سَجْسَجِ

سبب التّنافر في لفظة (سجسج) تقارب مَخْرَجَيْ السّين والجيم، ففي أثناء النّطق بهذه اللّفظة نجد صعوبة في ذلك. فالسّين يتمّ نطقه باعتماد طرف اللّسان العليا أو السّفلى مع التقاء مقدّمه باللّثّة العليا، مع وجود منفذ ضيّق للهواء فيحدث الاحتكاك، ويرفع أقصى الحنك حتّى يمنع مرور الهواء من الأنف. فالسّين صوت لثويّ أسنانيّ رخو مهموس مرقّق منفتح مستفل صفيريّ.[20] وقد صنّفه دوسوسير ضمن مجموعة أصوات الأزيز أو الهسهسة (sistantes) والّتي تضمّ الأصوات الآتية: الشّين،والصّاد، والزّاي، والظّاء.[59]

ومن هذا الضّرب قول البحتريّ:[21]

آثَارَ نُؤْى بِالفِنَاءِ مُثَلَّمٍ وَرِمَامُ أَشْعَثَ بِالعَرَاءِ مُشَجَّجِ

في هذه اللّفظة توالت ثلاثة أصوات شجريّة الشّين ثمّ الجيم المشدّدة ثمّ الجيم مرّة أخرى، وهذا ما يسبّب صعوبة في النّطق، ومردّ ذلك إلى اتّحاد المخرج.

3-خفّة الحركات

يُستحسن أن تكون المفردة مبنية من حركات خفيفة ليخفّ النّطق بها، وهذا الوصف يترتّب على ما قبله من تأليف الكلمة، ولهذا إذا توالت حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل. وبخلاف هذا إذا توالت حركتان ثقيلتان في كلمة واحدة ثقل النّطق بها. ولهذا السّبب استثقلت الضّمّة على الواو، والكسرة على الياء؛ لأنّ الضّمّة من جنس الواو، والكسرة من جنس الياء، فتكون بذلك كأنّها حركتان ثقيلتان.

ومع ذلك قد تتوالى حركة الضّمّ في بعض المفردات، ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقل؛ ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارُوا بِالنُّذُرِ﴾.[22] وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾.[23] والغالب أنّ توالي حركة الضّمّ مستثقل، فإذا شذّ عن ذلك شيء يسير، لا ينقض الأصل المقيس عليه.

وممّا توالت فيه حركات الضّم في ديوان البحتريّ وهو ليس بمستثقل قوله:[24]

إِنْ أَخْلَقَتْ حُرُقَاتٌ مِنْ صَبَابَتِهِ تَرَادَفَتْ حُرُقَاتٌ بَعْدَهَا جُدُدُ

فلفظة "جُدُدُ" في هذه الحالة تفيد التّجدّد، ولو وردت بفتح الدّال والأولى "جُدَدُ" لتغيّر المعنى تماما، وهذا ما أشار إليه ابن قتيبة في باب "ما جاء مضموما، والعامّة تفتحه"، فقال: "يقال: وهي ثياب "جُدُدُ" بضمّ الدّال الأولى، ولا يقال جُدَدٌ –بفتحها- إنّما الجُدَدُ الطّرائق، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ﴾[25] أي: طرائق".[26]

قال البحتريّ:[27]

وَمُظْفَّرُونَ إِذَا اسْتَقَلَّ لِوَاؤُهُم بِالعِزِّ أَدْرَكَ رَبَّهُ مَا يَطْلُبُ

نلمس في هذه اللّفظة ثقلا في النّطق لتوالي ضمّتين، فالضّمّة تحتاج إلى جهد عضلي أكثر؛ لأنّها تتكوّن بتحرّك أقصى اللّسان، ولذلك عُدّت صفة من صفات الخشونة الّتي يحرص عليها البدويّ، لأنّه يعتقد أنّها تميّزه عن غيره، ولذلك تمسّك بها وتعصّب لها في غالب الأحيان.[28]

فالظّاء ينتج عن اندفاع الهواء ومروره بالحنجرة فيحرّك الوترين الصّوتيّين، ثمّ يتّخذ مجراه في الحلق والفم حتّى يصل إلى مخرج الصّوت. فينطبق اللّسان على الحنك الأعلى حيث يأخذ شكلاً مقعّراً. فالظّاء صوت بين أسناني مجهور رخو مطبق مستعلّ مفخّم مشرب منفوخ. وهو النّظير المطبق لصوت الذّال.[29]

خاتمة:

أفضت رحلة البحث إلى استخلاص النّتائج التّالية:

- ✓ جلّ ألفاظ العربيّة المهملة الاستعمال كانت بسبب ثقلها وصعوبة نطقها وذلك كأن تجتمع ثلاثة أصوات متتالية من نفس المخرج في لفظة واحدة.
- ✓ التّنافر الصّوتيّ هوما تكون فيه المفردة ثقيلة على اللّسان يصعب النّطق بها وذلك نحو لفظة "الهعخع" التي اجتمعت فيها أربعة أصوات حلقية.
- ✓ اختلف العلماء حول سبب التّنافر الصّوتيّ بين قرب المخرج وبُعده جدّا، لكنّ الأرجح أنّ التّنافر سببه قرب المخرج وقد شُبِّه بمشي المقيّد.
- ✓ يراعى في نسج المفردات أن لا تكون متباعدة مخارجها جدّا لأنّه يسبّب إجهادا لأعضاء النّطق.
- ✓ تعدّ الأصوات الحلقيّة أقلّ الأصوات تأليفا للألفاظ وذلك لصعوبة النّطق بها.
- ✓ تلعب الحركات (الصّوائت) بنوعيها القصيرة والطّويلة دورا كبيرا في خفّة المفردات، فتوالي حركتين ثقيلتين(الضمّة والواو) يعدّ أمرا مجهدا في النّطق لأنّهما حركتان خلفيتان على عكس الصّوائت الأمامية (الفتحة والألف، والكسرة والياء)، فالذّوق العربيّ يسعى إلى السّهولة واليسر والاقتصاد في الجهد العضليّ.

---

[1] ينظر: مصطفى صادق الرّافعيّ، تاريخ آداب العرب، راجعه وضبطه: عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، مكتبة الإيمان، القاهرة، د. ط، د. ت، ص84.

[2] أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1402ه/1982م، ص57.

[3] محمد حسن الطّيان،كيف تغدو فصيحا عفّ اللّسان، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2002م، ص45-46.

[4] ينظر: فوزي حسن الشّايب، أثر القوانين الصّوتيّة في بناء الكلمة العربيّة، عالم الكتب الحديث، الأردن، د. ط، 2004م، ص15-17.

[5] عبد الرّحمن جلال الدّين السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرح وتحقيق: محمّد أحمد جاد المولى بك وآخرون، مكتبة دار التّراث، القاهرة، ط3، د. ت، ج1، ص194.

[6] ينظر: ابن رشد،تلخيص الخطابة، تحقيق وتقديم: عبد الرّحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، لبنان، د. ط، د. ت، ص116.

[7]نفسه، ص58.

[8]أبو بكر بن محمّد بن الحسن بن دريد،جمهرة اللّغة، تحقيق وتقديم: د. رمزي منير بعلبكّي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1982م، ج1، ص9.

[9]ينظر: تمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثّقافة، المغرب، د. ط، 1994م، ص269.

[10]البحتريّ، الدّيوان، تحقيق: حسن كامل الصّيرفي، دار المعارف، مصر، د. ط، د. ت، ج2، ص2434.

[11]ينظر: علي بن عيسى الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمّد خلف الله ود. محمّد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1976م، ص96.

[12]الدّيوان، ج1، ص297.

[13]ينظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللّغويّة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د. ط، د. ت، ص69.

[14]نفسه، ص70.

[15]الدّيوان، ج1، ص420.

[16]نفسه، ج1، ص421.

[17]نفسه، ج4، ص2084.

[18]اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص270.

[19]الدّيوان، ج1، ص405.

[20]ينظر: الأصوات اللّغويّة، ص76-77.

22ينظر: لويس عوض، مقدّمة في فقه اللّغة العربيّة، سينا للنّشر، القاهرة، ط2، 1993م، ص 183.

[21]الدّيوان، ج1، ص400.

[22]سورةالقمر، الآية 36.

[23]سورةالقمر، الآية 47.

[24]الدّيوان، ج2، ص645.

[25]سورةفاطر، الآية27.

[26]أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدّينوري، أدب الكاتب، تحقيق: محمد الدّالي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، د. ط، د. ت، ص394.

[27]الدّيوان، ج1، ص77.

[28]ينظر: إبراهيم أنيس، في اللّهجات العربيّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د. ط، 2003م، ص85.

[29]ينظر: الأصوات اللّغويّة، ص47.